٢ ــ قضية التحيز في علم النفس:

ملامح من سيرة ذاتية

د. قدري حنفي

توقن الكثرة الغالبة من علمائنا أن «التحيز» نقيض للعلم الموضوعي الصحيح. ومن ثَم فإنه نقيصة لا بد أن يَنْفُضَ رجلُ العلم شُبْهَتَها عن نفسه، وأن يعلن للكافة تبرّؤَه ـ أو بالأحرى بُرأه ـ منها. وإذا كان مجتمع العلماء يتوقع من رجل العلم أن يخطئ في حساباته أو افتراضاته أو استدلالاته، ويتقبل منه هذا الخطأ ـ أيًا كانت خطورة نتائجه ـ بتسامح نادر؛ فإن هذا المجتمع عينه لا يغفر لعالم قط «خطيئة التحيز». فشتان ما بين الخطأ والخطيئة.

وتختص العلوم الإنسانية ـ وفي مقدمتها ـ علم النفس، بالجانب الأكبر من شُبهات التحيز. ويستند أصحاب هذا التخوف ومنهم جُل علماء النفس المعاصر، إلى ما يتميز به موقف البحث في السلوك الإنساني من أن الباحث يُعد جزءًا من موضوع بحثه بحكم كونه إنسانًا. ولما كان هدف أي بحث علمي هو التوصل إلى قوانين عامة تفسير مجموعة الظواهر موضع البحث، فإن هدف الباحث في مجال السلوك الإنساني هو التوصل إلى قوانين عامة تفسّر سلوكه هو أيضًا، وسلوك من قد يحب أو قد يكره من أقرانه البشر. ومن هنا فإن تحيزاته الذاتية، ورغباته، وآراءه الشخصية، قد تتدخل جميعًا في تفسيره للنتائج التي يصل إليها بحثه، بل قد يمتد تداخُلُها لتؤثر في اختياره للوقائع محل الدراسة، وللمنهج الذي يختاره لتناولها.

كانت تلك هي الصورة كما تلقيتها مع أبناء جيلي من دارسي علم النفس في مطلع الخمسينيات على أيدي أساتذة أجلاء بذلوا قُصارى جهدهم في تدريبنا على التخلي عن تلك السِّمة المقيتة، سِمة التحيز؛ والتحلي بأهم سمات العالِم الموضوعي، سمة الحياد. ولقد لقننا أساتذتنا آنذاك أن التمكن من إنجاز عمليتي التخَلي والتحَلي هاتين ليس بالأمر الميسور، وأنه يقتضي مجاهَدة شاقة للنفس، وجهدًا مكثفًا لإتقان الفنِّيات اللازمة لهذا الإنجاز.

لقد كانت ساحة علم النفس آنذاك تتقاسمها في بلادنا مدرستان كبيرتان تكادان أن تكونا على طرفَي نقيض: **مدرسة التحليل النفسي** وعلى رأسها رائد هذا الفن في العالم العربي أستاذنا الراحل مصطفى زيور، وعلى الضفة المقابلة **المدرسة السلوكية** وعلى رأسها ـ وما زال ـ أستاذنا الدكتور مصطفى سويف. ورغم تباين نظرة كل من المدرستين إلى الإنسان، ومن ثَم إلى جوهر موضوع علم النفس وما يترتب على ذلك من تبايُن في الأدوات والتفسيرات إلى حد أن كلتا المدرستين قد أنكرت على الأُخرى مشروعية انتمائها إلى علم حقيقي بالنفس، رغم كل ذلك فقد اتفقت المدرستان ـ بل وتباريتا ـ في إدانة التحيز وإبتكار الفنِّيات الكفيلة بتخليص الباحث العلمي من شبهاته.

ارتأت مدرسة التحليل النفسي أنه لا سبيل لممارسة المحلِّل النفسي لعمله على الوجه الصحيح إلا إذا ما تخلص من تحيزاته الشخصية. ولذلك فإن على المحلل النفسي أن يُخضع نفسه خلال فترة تدريبه لجلسات متعمقة على يد محلِّل نفسي مدرَّب، تكشف له عمّا بداخله من تحيزات خافية دفينة، ولا يلبث خلال خطوات تحليلية نفسية معقدة أن يستبصر بتلك التحيزات، ومن ثَم يتخلص منها، وله بعد ذلك أن يمضي إلى مرضاه محايدًا موضوعيًا ليعالجَهم ويبرئَهم من أعراضهم التي هي بشكل أو بآخر تعبير عن تحيزات انفعالية ذاتية حادة لم يطيقوا مواجهة أنفسهم بها في طفولتهم، فغاصت في أعماق لاشعورهم، ثم راحت بعد ذلك تتبدَّى في صورة أعراض مرضية تشوه نظرتهم للعالم من حولهم، وتشوه بالتالي تعاملهم مع غيرهم.

وعلى الضفة المقابلة من علم النفس الذي نَهَل منه جيلُنا آنذاك، كانت المدرسة السلوكية التي كان ملاذها الرئيسي من خطر التحيز متمثلاً بشكل أساسي في إحكام التدريب على الفنيات الإحصائية الصارمة بحيث تكفُل للباحث العلمي أن ينأى بتحيزاته عن أي تدخل في التعامل مع موضوع بحثه سواء في تصنيف بياناته أو توصيفها أو تحليل نتائجه. ولقد ساعد تلك المدرسة على تدعيم ملاذها الإحصائي والإطمئنان إليه ذلك التقدم المذهل في علم الإحصاء والحاسبات الآلية.

وعلى أي حال فلسْنا بصدد المقارنة بين الفنيات التي ارتضتْها كل مدرسة لتقي أتباعها شبهة التحيز أو الانحياز. كما أننا لسنا بصدد استعراض الثغْرات والفجْوات التي تشوب السدود التي أقامتها كلٌّ من المدرستين بهدف توفير الحماية المرتجاة. ففضلاً عن أن ذلك قد يخرج عن الإطار الذي تستهدفه هذه الصفحات، فإن التوصل إلى تلك الثغرات والفجوات كان آنذاك ـ أي في بداية الخمسينيات ـ أمرًا لم يحن وقته بعد بالنسبة لي. فلقد ظل يقيني ثابتًا بأن التحيز هو الخطر الأكبر الذي يهدد العلم، وهو الوصمة المقيتة التي ينبغي أن يتجنبها رجل العلم. وظلت كذلك حتى وقعت كارثة حزيران/ يونيو ١٩٦٧، والتي أدت تداعياتها على المستوى الشخصي إلى اتجاهي نحو دراسة الشخصية الإسرائيلية، وهو المجال الذي أنجزت فيه أطروحتي للحصول على درجة الدكتوراه في علم النفس من جامعة عين شمس. ولعل خير ما يعبر عن طبيعة الأزمة التي كادت أن تعصف بي آنذاك هي الكلمات التي قدمت بها رسالتي إلى لجنة المناقشة في التاسع من شباط/ يناير ١٩٧٤ حيث قلت:

«بدأت قصتي مع هذا البحث في الأيام القليلة التي صاحبت وتلت كارثة حزيران/ يونيو ١٩٦٧. وأعترف أنها بداية قد تأخرت بما يزيد على ربع القرن. لقد أحسست آنذاك أن الكثير من المسلَّمات النظرية التي كنت أطمئن إليها وأركن لها قد تهاوت، وأنني أوشك أن أتهاوى معها. لقد بددت شمس ذلك اليونيو المشؤوم كثيرًا من الأوهام النظرية التي كنتُ أستظلُّ بها دون أن أفطن إليها. ومن بين تلك الأوهام كان توهم إمكانية الفصل بين الأولويات الوطنية، والأولويات العلمية. صحيح أنني لم

أعتقد قط بإمكانية الفصل بين العلم والمجتمع، ولكني كنت على مستوى الممارسة أرتضي حلًّا وسطًا موهومًا أقنع فيه بكفاية أن تتوافر بين العلم والمجتمع رابطة ما، دون إصرار على ضرورة تطابق الأولويات الوطنية مع الأولويات العلمية. ولم أعد أرى مع مغيب شمس الخامس من يونيو سوى أوْلوية واحدة على المستويين الوطني والعلمي هي التصدي للخطر الإسرائيلي. ولكن كيف؟ لم يكن لدي اختيارات كثيرة؛ فالقتال الفعلي، وهو أرقى وأهم أوجه التصدي المنشود كان بالنسبة لي وبفعل عوامل كثيرة أبعد حتى عن مدى الأمنيات.

ومن ثم لم يعد أمامي سوى أن أضع ما أعرفه في خدمة من مارسوا ويمارسون بالفعل قتال العدو الإسرائيلي. ولست بالذي يعرف الكثير. فكل ما أعرفه بحكم تَخَصُّصِي الأكاديمي كان وما يزال قدرًا متواضعًا من علم النفس. ولكن لم يكن بدٌّ من محاولة تسخير ذلك القليل الذي أعرفه لخدمة صراعنا مع العدو. ولعل محاولتي إن لم تُفد المقاتلين تقيني الانهيار عجزًا ومرارة. هكذا كنت أفكر عندما بدأ اهتمامي بتحصيل نوع من المعرفة النفسية بالعدو الإسرائيلي. هكذا كانت البداية ولم يكن الطريق أمامي ممهدًا، بل كان ـ وأكاد أقول وما يزال ـ وعرًا مقفرًا مليئًا بالحسَك والشوك...».

كانت تلك هي الكلمات التي عبرتُ بها عن نفسي، والتي آثرْت أن أنقلها حرفيًّا عن تسجيل صوتي لوقائع مناقشة أطروحة الدكتوراه كما أذيعت من الإذاعة المصرية آنذاك.

لقد كان جوهر الأزمة التي تشير إليها تلك الكلمات هي أنني وجدت نفسي مطالبًا «وطنيًّا» بتسخير معرفتي النفسية لدراسة العدو الإسرائيلي، ولكني كدارس مجتهد لعلم النفس وجدت نفسي مطالَبًا «علميًّا» بالتخلي عن عدائي للعدو الإسرائيلي وتحيزي ضد هذا العدو، وإلا أصبحَت دراستي له لغوًا لا طائل وراءه. ولم أجد بُدًّا من مراجعة مسلَّماتي العلمية الأساسية. هل صحيح أن الانحياز يهدد العلم الموضوعي؟ وهل من سبيلٍ لتخُلص الإنسان بما هو إنسان من انحيازه؟

وهل من الممكن أن يتخلى الإنسان عن انحيازه مؤقتًا خلال بحثه العلمي ليعود إليه من جديد بعد إنجاز هذا البحث؟ واستغرقتني هذه التساؤلات طويلاً. وتَضمنَت صفحات أطروحتي المشار إليها للحصول على درجة الدكتوراه عرضًا لمسيرتي بصدد محاولة الإجابة عن تلك التساؤلات، أستأذن في نقلها عن مستهَل الفصل الخامس من فصول تلك الأطروحة التي صدرت طبعتها الأُولى ضمن منشورات مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس عام ١٩٧٥، وعنوانها «دراسة في الشخصية الإسرائيلية: الإشكَنازيم».

«إن الدراسة السيكولوجية للتجمع الإسرائيلي من موقع مصري قد فرضت علينا صراعًا بدا في أول الأمر وكأنه حتمي بين مقتضيات التجرد العلمي ومقتضيات الالتزام الوطني، وكاد ذلك الصراع أن يتحول إلى قيْد يعوق إمكانية المضي في الدراسة. ثم لم يلبث أن تحول إلى تساؤل مؤدَّاه: هل ثمَّة صراع حقًا بين مقتضيات التجرد العلمي، ومقتضيات الالتزام الوطني؟ وأدى طرح ذلك التساؤل إلى سلسلة متتالية من التساؤلات المترابطة: هل ثمة تعارض بين الانحياز والموضوعية، أم أن التعارض الحقيقي إنما هو بين الذاتية والموضوعية؟ أليس من فرق بين الانحياز والذاتية؟ أليس من فرق كذلك بين الحياد والموضوعية؟ هل صحيح أن ثمة طريق محايد غير مُنحاز يؤدي إلى معرفة حقيقية، خاصة في مجال العلوم الإنسانية؟ وإذا لم يكن بدٌ من الحياد لكي تتحقق المعرفة العلمية الموضوعية، فكيف للإنسان أن يعرف أعداءه، أو أصدقاءه معرفة علمية؟ ألا يعني هذا استحالة معرفة العدو وأيضًا استحالة معرفة الصديق؟ هل الطريق ممهد فحسب لمعرفة أولئك الذين لا يتخذ الإنسان منهم موقفًا منحازًا مُسبقًا، أي أولئك الذين ليسوا بأصدقاء وليسوا بأعداء؟ تُرى وهل يهتم الإنسان عادة بمعرفة هؤلاء أم أن اهتمامه إنما ينصب على معرفة أولئك الذين يحبهم وأولئك الذين يكرههم؟ وهل من إمكانية لأنْ يؤجل المرء اتخاذ موقفه إلى أن ينتهي من بحثه؟ أم أنَّ اتخاذ مثل هذا الموقف هو بمثابة المبرر أو الدافع الذي يدفعه إلى البحث؟ هل علماء النفس الذين تصدَّوا ويتصدوْن لدراسة العديد من مشكلات الإنسان المعاصر الملحّة قد

أجَّلوا اتخاذ مواقفهم حيال تلك المشاكل إلى ما بعد قيامهم بدراستها دراسة محايدة؟ تُرى هل يمكن مثلاً لعالم أمريكي أن يتصدى لدراسة مشكلة التعصب العنصري حيال الزنوج دون أن يكون مهتمًّا بتلك المشكلة بمعنى أن له موقفًا ما منها دفعه بالتالي إلى دراستها؟... الانحياز يعني اتخاذ موقف مُسبق يُحتمل أن يكون موضوعيًّا، ويُحتمل أن يكون ذاتيًّا، أي يمكن أن يكون صحيحًا، ويمكن أن يكون خاطئًا، أما الذاتية فتعني ألا يرى المرء إلا أفكاره هو، وأن يراها على أنها وقائع خارجية...».

لقد مضت على هذه الكلمات سنوات طوال، حققت خلالها العلوم الطبيعية والإنسانية إنجازات ضخمة، وتغير من ملامح تلك العلوم الشيء الكثير. وقد أُتيح لي خلال تلك الأعوام الطويلة أن ألتقي مرة بطلاب الدراسات العليا من دارسي الهندسة، وأن ألتقي أحيانًا بأقرانهم من دارسي الطب فضلاً عن لقاءاتي المستمرة تقريبًا بدارسي العلوم الإنسانية عامة وعلم النفس على وجه الخصوص. وكنت ألحظ خلال تلك اللقاءات أن الكثرة الغالبة من أبنائنا، بل ومن زملائنا، ما زالوا على يقينهم المعهود من خطورة التحيز على العلْم وضرورة الحياد بالنسبة لرجل العلم. وقد كنت وما زلت حريصًا في مثل تلك اللقاءات على الإشارة إلى أهمية التفرقة بين الانحياز والذاتية، طارحًا من الأمثلة والاستشهادات ما يتناسب مع طبيعة تخصصات المشاركين واتجاهاتهم، محاولاً أن أحذِّر من أن محاولة التنصُّل من الانحياز ـ الذي هو صورة من صور الانتماء ـ إنما تدفع برجل العلم إلى واحد من طرق ثلاثة بالغة الخطورة:

الطريق الأول: يؤدي برجل العلم إلى أن يقصِر جهده العلمي على توافه الموضوعات حيث يستطيع أن يلتزم حيالها بحياد صادق مستبعدًا كل ما يثير لديه اهتمامًا اجتماعيًّا حيًّا. فإذا بصاحبنا ينصرف بعلمه عما يَعنيه، متجهًا إلى موضوعات لا تعْنيه، وقد لا تعْني غيره. ولعل ذلك يتفق مع ما سبق أن توصلت إليه خلال مسْح أولي لموضوعات البحوث الأكثر انتشارًا في مجال علم النفس الاجتماعي اتضح من خلاله أن المجالات التي تعاني من ندرة بالغة من حيث اهتمام الدارسين بالتصدي لموضوعاتها هي مجالات: الدين، والجنس، والسياسة. ولنا أن نتصور ماذا يبقى لرجل

علم النفس الاجتماعي بعد استبعاد تلك المجالات.

أما الطريق الثاني: فإنه يدفع برجل العلم إلى مخادعة نفسه مُنكِرًا انحيازه مستنكرًا له، ثم إذا بنا نجده غارقًا في الذاتية حتى أذنيه. ويكفينا أن نشير في هذا الصدد إلى ما أسفرت عنه دراساتُ مقاييس الذكاء الأمريكية الشائعة بتشبعها بتحيُّزات اجتماعية صارخة، وكيف أن حِرص أصحاب تلك المقاييس على إنكار تحيزاتهم قد أدى إلى تحول مقاييسهم إلى أدوات ذاتية خالصة.

أما الطريق الثالث: وهو أخطر تلك الطرق فيتم من خلاله استدراج رجل العلم وقد انبهر بتقدم الأدوات «الموضوعية» للعلم الغربي لكي يضع خبرته العلمية، ومعلوماته الميدانية، بل وكيانه الشخصي أحيانًا في خدمة أعداء قومه، ملتحِفًا بتلك العباءة المهترِئة، عباءة العلم المحايد الذي لا وطن له، ولا انحياز لدى رجاله.

إن الاستجابات التي يثيرها الطرْح السابق للمشكلة، والتي ما زلت ألمسها في عيون الكثرة الغالبة من الأبناء والزملاء وعلى ألسنتهم، تشير إلى أن ما تضمنته كلماتي التي مضت عليها السنوات الطوال ما زالت ـ للأسف ـ صالحة للتكرار: «. . . لم يكن الطريق ممهدًا، بل كان ـ وأكاد أقول وما يزال ـ وعرًا مقفرًا مليئًا بالحسَك والشوك».